قـــــــراءة
فـــي
القيـاس النحوي

إعداد
الدكتور
محمد رفعت حمدان أحمد سطوحي
أستاذ اللغويات المساعد فى جامعة الأزهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

قـراءة في القيـاس النحـوي

د/ محمد رفعت حمدان أحمد سطوحي

أستاذ اللغويات المساعد فى جامعة الأزهر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

مقدمـــــــــــة

الحمد لله الذى علم الإنسان ما لم يعلم، وأودع فيه ﷺ حلـل الفـصاحة والبيان؛ فأتم به وبكتابه صرح الفصاحة والإعجاز، وأصلى وأسلم على أكمـل البشر، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن اللغة العربية وسيلة الفهم والإفهام، وهى منذ خلق الكون وخلق آدم ــ عليه السلام ــ خلال قرون مديدة، وأجيال متعاقبة خالصة نقية من الشوائب سليمة لأبنائها، ورجالها، وفرسانها؛ فاختارها الله لتكون لسان دستوره الكـونى، وبلفظها وأساليبها حوت خير الأخبار، وسجلت دهوراً وأياماً فوفـت وعمـت، وأوجزت وأطنبت حسب نظام دقيق وعجيب.

وكان أبناؤها يتفاخرون بها؛ لأنها لسان حالهم، ودرب بيانهم أودعوهـا سرهم وأسرارهم، وعلقت على مشاعرهم، وأحاسيسهم ووجـدانهم؛ فـسجلت، وحفظت.

ولما جاء الرسول ﷺ بالقرآن المعجز فكانت وسيلة لإعجـازه وتحديـه لأرباب الفصاحة والبيان من الناطقين بها، فدخل الناس ــ عرباً وغير عرب ــ فى الدين أفواجاً لبلاغته وفصاحته؛ فكان من الطبعى أن تستغلق اللغة على غير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

أبنائها، وكان من الطبعى أن ينحرف غير العربى فى لسانه عن طريق السير فى اللغة الجديدة، فإذا تحقق له ونطق أول صوت من كلمة عربية أعوزتـه بـاقى الأصوات (الحروف).

لقد ظل هذا الأمر هكذا فى البيئة القرآنية الجديدة، فمنهم ــ غير العرب ــ من ينطق الصوت منحرفاً به بعض الشيئ، أو منجرفاً به فى حركته؛ وقـد أدى هذا الانحراف من غير العربى إلى التأثير فى لغة العربى؛ فنمت ظـاهرة اللحن وفشت، ووضعت القائمين على اللغة فى حيرة من الأمر ، وألقت بحفظة القرآن فى معترك الخلاف؛ فعلى أى وجه تقرأ الكلمة القرآنية ؟ وذلك لأن اللحن فى أداء اللغة لحن فى الأداء القرآنى.

فاستلزم هذا الأمر استنهاض الهمم والعزائم ، فجمعوا المـصاحف فـى كتاب واحد، ثم قاموا بنقطه نقط الإعراب؛ فأخذ المهتمون بأمر اللغة يبحثـون هذه الظواهر الخلافية فى النطق.

ولما كان غالب الدراسات الحديثة قد انصب همها على القياس اللغوى، والذى منه القياس النحوى، كما أن القدامى قد تأثروا بالفقهاء فى دراسة تاريخ النحو والقياس النحوى.

ولكن الأمر بخلاف ذلك؛ فقد رأيت أن بين القياس اللغوى، والقياس النحوى فرقاً غامضاً وخيطاً دقيقاً يجب التنبه إليه؛ فاخترت هذا الموضوع للبحث وعنونته بـ:

قراءة فى القياس النحوى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

وقد جاء هذا البحث فى مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع.

أما المقدمة: فقد ذكرت فيها ــ بعد الحمد ــ سبب اختيار الموضوع، وخطته، ومنهجه.

وأما التمهيد: فقد عرفت فيه بالقياس موضحاً الفرق الدقيق بينه وبين القياس اللغوى

وأما الفصل الأول: فعنوانه: قياس الأنظمة، وتحدثت فيه عن قياس العربى للغته وفق نظم وقواعد تعلمها العربى من بيئته ولكنها كانت محفوظة فى عقلها، ولم يخرجها للتعليم؛ لأن الحاجة لم تتطلب ذلك.

وذكرت ــ أيضاً ــ طابع هذا القياس فى هذه المرحلة ومنهجه، وأنه كان يتسم بطابعين: الصوغ القياسى، والانتقاء.

وأما الفصل الثانى: فعنوانه: القياس العلمى (المدروس)، وتحدثت فيه عن مراحل هذا القياس، وسمات كل مرحلة، والخطوات التى مر بها هذا القياس.

وأما الخاتمة: فذكرت فيها أهم النتائج التى ظهرت من ثمرة هذا البحث، ثم وضعت فهرساً للمصادر والمراجع، وفهرساً لمحتوى البحث.

أما عن المنهج فكان يعتمد على تحليل الوقائع التاريخية التى حدثت فى تاريخ النحو، ومدى انعكاس هذه الوقائع ــ سلباً وإيجاباً ــ على النحو والنحويين، ومحاولة بلورة الفكر النحوى السائد فى كل فترة زمنية مر بها النحو، ومدى تأثير الأفراد فى سير القياس النحوى فى طريقه العلمى؛ فوسمت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

تمهيد

نقل السيوطى عن الأنبارى فى تعريف القياس بأنه: حمل غير المنقول على المنقول إذا كان فى معناه. (١)

وعلى هذا يمكن القول بأنه: محاكاة العرب فى طريق استعمالهم للغة فيما يمكن أن يجد من تراكيب، وألفاظ تناسب كل عصر مع مراعاة نظم وقواعد اللغة.

أو قل هو: موازنة بين شيئين، أو ظاهرتين بشرط وجود جامع مشترك بينهما يجعل الخلوص إلى نتيجة، أو حكم مستنبط من تلك الموازنة أمراً ممكناً.

هذا هو المعنى العام من القياس سواء أكان قياساً لغوياً، أم نحوياً أم صرفياً، أم فقهياً...إلخ

ولكن القياس النحوى بدأ من حيث انتهت اللغة فى كيانها الوجودى، فبعد أن كملت اللغة كوسيلة للتخاطب، والتفاهم منذ خلق الكون، ــ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢) واستقامت لأبنائها سليمة نقية، ومقننة بقوانين وراثية، يتوارث أبناؤها قانونها، وترضعه عقولهم من ثدى أمهاتهم.

وقد دفع هذا الإرث الذى اتسم بالسلامة، والفصاحة، والاستقامة فى اللغة إلى الاتكال والاعتماد فى أمر اللغة؛ فهى عندهم، وسيلة تخاطب، وتفاهم،

---

(١) الاقتراح فى علم أصول النحو للسيوطى ص ٥٩ تحقيق / محمد حسن إسماعيل الشافعى ــ دار الكتب العلمية ــ دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٢) البقرة آية ٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

ووسيلة تجويد يستدعونها عند الحاجة إليها وإلى فنون أساليبها التى تنهض لهم والعزائم، وترقق المشاعر والعواطف ــ كالحرب والنـــزال والحب.... إلخ.

فلم يبحثوا فى مواطن الخلل التى يمكن أن تتعرض لها اللغة، ولم يجدوا حلاً للهجوم الذى يمكن أن يدهمها من اللغات المجاورة، فاعتمدوا علـــى هـــذا الإرث حتى داهمها اللحن بظهور الإسلام.

فلو فكر أحد قبل ظهور اللحن، وعمل حساباً لما يمكن أن تتعرض لـــه اللغة؛ فاحتاط لهذا الأمر، لصار القياس ــ فى الدراسة ــ جنباً إلى جنـــب مـــع اللغة، بحيث يكون التفكير والمفكر فى اللغة، وسيلة لوضع الضابط الذى يحفـــظ اللغة لأبنائها، وللأجيال القادمة؛ وبالتالى تكون السيطرة على اللحن أو الخطـــر أمراً سهلاً، ويصبح القياس عملية ذهنية تأتى مع التفكر والتأمل فـــى الظـــواهر اللغوية، فكنا نقيس كما قاسوا ونضبط كما ضبطوا، ونستطيع أن نتعرف علـــى الدخيل والمستهجن بيسر وسهولة.

لكن نظرة الأوائل للغة كانت بقدر الحاجة إليها، أو الحاجة إلى أمورهم الحياتية كالحرب والغزل... فلم تكن نظرتهم ذاتية، ولو كانت نظـــرتهم ذاتيـــة لتفكروا فيها ــ ما لها وما عليها ــ وما يصلح لها، ومدى قوتها وتأثيرها علـــى الأمد البعيد فى اللغات الأخرى.

فهى عندهم وسيلة تحقق لهم ما يريدون، يأخذون مـــن قـــوة ألفاظهـــا، ومعانيها عندما تكون الحاجة تتطلب ذلك، ويأخذون من رقة معانيهـــا وجزالـــة ألفاظها ما يريدون.

ولكنى مع ذلك أقول: إن الله قد حفظ لهذه اللغة بقاءها وقوتها منذ خلـــق آدم ــ عليه السلام ــ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فتـــساير العـــصور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

ووسيلة تجويد يستدعونها عند الحاجة إليها وإلى فنون أساليبها التى تنهض الهمم والعزائم، وترقق المشاعر والعواطف ــ كالحرب والنــزال والحب.... إلخ.

فلم يبحثوا فى مواطن الخلل التى يمكن أن تتعرض لها اللغة، ولم يجنوا حلاً للهجوم الذى يمكن أن يدهمها من اللغات المجاورة، فاعتمدوا علــى هــذا الإرث حتى داهمها اللحن بظهور الإسلام.

فلو فكر أحد قبل ظهور اللحن، وعمل حساباً لما يمكن أن تتعرض لــه اللغة؛ فاحتاط لهذا الأمر، لصار القياس ــ فى الدراسة ــ جنباً إلى جنــب مــع اللغة، بحيث يكون التفكير والمفكر فى اللغة، وسيلة لوضع الضابط الذى يحفــظ اللغة لأبنائها، وللأجيال القادمة؛ وبالتالى تكون السيطرة على اللحن أو الخطــر أمراً سهلاً، ويصبح القياس عملية ذهنية تأتى مع التفكر والتأمل فــى الظــواهر اللغوية، فكنا نقيس كما قاسوا ونضبط كما ضبطوا، ونستطيع أن نتعرف علــى الدخيل والمستهجن بيسر وسهولة.

لكن نظرة الأوائل للغة كانت بقدر الحاجة إليها، أو الحاجة إلى أمورهم الحياتية كالحرب والغزل... فلم تكن نظرتهم ذاتية، ولو كانت نظــرتهم ذاتيــة لتفكروا فيها ــ ما لها وما عليها ــ وما يصلح لها، ومدى قوتها وتأثيرها علــى الأمد البعيد فى اللغات الأخرى.

فهى عندهم وسيلة تحقق لهم ما يريدون، يأخذون مــن قــوة ألفاظهــا، ومعانيها عندما تكون الحاجة تتطلب ذلك، ويأخذون من رقة معانيهــا وجزالــة ألفاظها ما يريدون.

ولكنى مع ذلك أقول: إن الله قد حفظ لهذه اللغة بقاءها وقوتها منذ خلــق آدم ــ عليه السلام ــ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فتــعابر العــصور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

والأزمان بقوة ورصانة لا يختلف على ذلك أدنى متعلم، ولها من الفصاحة والبيان ما يعجظ العقول والألباب، ولا ينكر ذلك أحد إلا حاقد، أو مشوش، وقد فعله كبيرهم. (١)

وغاية الأمر أنه كان يحتاج إلى إمعان نظر، أو لفت انتباه إلى هذا الكيان الحيوى الذى لا يمكن الاستغناء عنه، كما أمعنوا النظر، وسلطوا انتباههم إلى الحرب، والغزل، والفخر... إلخ، فوضعوا قوانين لكل شيئ فى حياتهم من سلم وحرب... إلخ.

وربما يرجع ذلك إلى ان العرب ظنوا أن اللغة لهم ولأبنائهم؛ فلا ينازعهم فيها أحد، ولم يعلموا أن المستقبل سيأتى بكتاب سماوى تكون لغتهم لساناً له؛ فركنوا إلى هذا، واعتمدوا على السلامة والفصاحة ذلكم الإرث المقدس من الآباء.

ومما يدل على هذا الاتكال والاعتماد، أنهم نهضوا عندما خالطهم غيرهم، وأحسوا بأن لغتهم يمكن أن تضيع، وتفسد، فقاموا من فورهم يبحثون عن الوسائل التى تحفظ لهم لغتهم من الضياع والذوبان؛ فهيأ الله لها ما يقوم

---

(١) وأقصد بذلك أحد الكتاب المحدثين (شريف الشوباشى) فى كتابه: لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه الذى نفى عن اللغة قدسيتها بحجة أن الذين دخلوا فى الإسلام من غير العرب لم يشترط لصحة إسلامهم إجادة العربية، وهذا وهم بين، فاللغة تستمد قدسيتها من القرآن، وليست القدسية فى استعمال ألفاظ اللغة وتراكيبها، فالقدسية فى نزول القرآن بلسانها، وليس فى استخدامها، كما أن الإعجاز القرآنى جاء فى القرآن واللغة أداة استخدمها النظم القرآنى فأعجز فى نظمها، وليست اللغة معجزة، وإنما المعجز القرآن، ووجه إعجازه فى كل شيئ ومنه: استخدام اللغة فى نظمها بطريقة لا تأتى للبشر (انظر هذا المؤلف من ٨٧ إلى نهاية مبحث: هل العربية لغة مقدسة ؟).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

بأعمال تبقى اللغة، فقاموا باستنباط الظواهر اللغوية، ووضعوا القوانين لتلك الظواهر وإن اختلفت قليلاً بالنظر إلى الواضع مرة،وإلى المتكلم مرة أخرى.

لكن ما استنبط من هذا القياس كان من الممكن استنباطه قبل ظهور اللحن، ويكون ذلك بوضع القوانين المستقرأة من اللغة السليمة، وعندما يصادفه ما خرج عن القانون يوضع فى مكانه اللائق إذا لم يمكن احتوائه داخل جزئيات القاعدة.

والنتيجة الحتمية التى يجب أن يعرفها ويقرها الجميع هى: أن القياس كان دافعه اللحن؛ ذلك الخطر الذى لم تحسب له الحسابات؛ فظهر القياس الذى خرج إلى النور على أيدى علماء أجلاء استطاعوا أن يحفظوا اللغة من اللحن ما أمكنهم إلى ذلك سبيلاً.

وعملية القياس بالطبع أدت إلى اختلاف نظرة العلماء فى المعايير الدقيقة؛ فكان طابعها فى البداية التفرد الشخصى فقامت على الفكر الفردى؛ وبذلك حكمت معايير هذه العملية بطابع الفردية، فمن طال باعه فى استقصاء اللغة قوى قياسه، ومن قصر باعه يقصر قياسه، وبلا أدنى شك أن طول الباع يعنى صحة القياس وقبوله، ولا شك أن طول الباع وقصره كانت تحكمه ظروف بيئية، وليست قدرة علمية؛ فمن عنده القدرة على الترحال، والتنقل فى شبه الجزيرة العربية ويشافه العرب عد ممن طال باعهم، وإلا كانت الأخرى، وهذا الأمر يرجع إلى طبيعة الحياة القاسية التى عاشها العرب قبل الإسلام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

القياس اللغوى والقياس النحوى

مما لا شك فيه أن المتتبع للقياسين يدرك أن بينهما فرقاً جلياً، وأن العلماء دأبوا على الدمج والخلط بينهما، وخلط القياس النحوى بالقياس اللغوى أوقعهم فى شرك التشتت، وعدم الدقة فى الأسس والمعايير؛ وإن كان الأول وليداً للثانى.

لأجل هذا وقع الخلاف بينهم من حيث المعايير التى يقاس عليها؛ فالقياس اللغوى ينحصر فى الألفاظ من حيث الوجود والعدم، والتطور الصوتى والدلالى، والترادف والاشتراك أو التضاد الذى يعترى اللفظة، فمثلاً: لفظة مرت فى تاريخها بعدة دلالات ــ صوتية أو معنوية ــ ووجدت لفظة تشترك معها فى البيئة (المكان) فيحكم لها بالتغيير الدلالى، والصوتى على سبيل القياس لاشتراكهما فى البيئة اللغوية.

أما القياس النحوى فيعتمد على اللفظ من حيث، وظيفته فى الجملة، علاقته المعنوية والتركيبية مع غيره.

فالقياس اللغوى مبحثه الكلمة من حيث بنيتها، ودلالتها، وأصواتها، والقياس حوى مبحثه الكلمة من حيث وظيفتها، ورتبتها، ومدى تأثيرها فى غيرها، أثرها بغيرها من عامل وغيره.

ومن حيث المنهج، فمنهج القياس اللغوى، اللغة من حيث هى وسيلة خاطب والتفاهم، والقياس النحوى، منهجه التراكيب اللغوية المنوطة بالمعنى، لاقة التراكيب مع بعضها، وعلاقة الألفاظ داخل التراكيب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

ومن حيث الأداء والوظيفة، فالقياس النحوى يعمل على إيجاد قاعدة تجمع ما يمكن أن يشترك مع غيره فى معنى، أو عمل تحت حكم واحد، كعمل ما ولا وإن، عمل ليس لاشتراكهما فى معنى واحد وهو النفى، وعمل المشتقات عمل الفعل... إلخ.

والقياس اللغوى ينحصر عمله فى الألفاظ ومعانيها وبنيتها... إلخ، فمهمته البحث، والقياس النحوى، مهمته ضبط وصوغ ما وجد فى قوالب وظيفية، وإيجاد العلائق التى يمكن أن تجمع تلك الألفاظ.

وخلاصة القول: أن القياس النحوى، يعنى بضبط الكلمة العربية، وقياسها على غيرها مما سمع عن العرب، أما القياس اللغوى، فيعنى بألفاظ اللغة – أى لغة – من حيث الوجود، والتغير والمكان... إلخ. والله أعلم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

الفصل الأول

قياس الأنظمة

[illegible] من حيث هو قانون يحتكم إليه فيما يقال، أو يعرض عليه من بناء، فيمكن القول بأنه يحوي كل ما ورد عن العرب، وعصر حكمه فيه.

فهو بناء لغة منطوقة بطرق معينة وضوابط معينة، وهذه الطرق هي معين لكل من يريد مواصلة، وهذا الأداء يكون طريقه السماع دون تعلم أو دربة في الأداء فأصبح الأمر نظاماً لغوياً متكاملاً، ومن ضمن هذا النظام المعاني النحوية التي يكتسبها القارئ العربي بضابطها من بيئته دون أن يخرج عن هذا النظام.

وإذا كان الأمر كذلك فيعد من الخطأ أن يؤرخ للقياس النحوي بظهور اللحن أو بعده، وإنما هي مراحل مر بها القياس النحوي في عمر اللغة المديد؛ فعبد الله بن إسحاق الذي يمثل مرحلة التبعيج، والخليل بن أحمد الذي يمثل مرحلة الكمال، إنما هي مراحل في القياس تقصر إحداها عن الأخرى تبعاً للفكر من جهة، والحاجة من جهة أخرى.

ويعد من الإنصاف العلمي عدم عزل القياس النحوي عن اللغة في جميع مراحلها (مرحلة ما قبل اللحن وبعده)؛ فالقياس في تتبعه للظواهر اللغوية التي خصها النحاة يكون قد انقسم إلى مرحلتين: مرحلة الملاحظة، ومرحلة ما قبل الملاحظة، فمرحلة الملاحظة التي قام به النحاة كان عبارة عن ملاحظة دفعها اللحن دفعاً، ومرحلة ما قبل الملاحظة تعد مرحلة قصر فيها التفكير والتفكر عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

تتبع الظواهر؛ فتعد مرحلة مسكوتاً عنها، وهذا لا يعنى عدم وجود القياس؛ فقد وجد القياس، فكان العربى يقيس التراكيب اللغوية بطريقة فطرية لم تعرف الخلل فى نظام اللغة، ومن هذه الطريقة التى أدُيت بها اللغة بتراكيبها أخذ منها القياس فى مرحلة ما بعد الملاحظة.

فمن الصعب عزل القياس عن اللغة فى مرحلة معينة، والعمل به فى مرحلة أخرى، يقول فندريس: " يطلق القياس على العملية التى بها يخلق الذهن صيغة، أو كلمة، أو تركيباً تبعاً لأنموذج معروف." هـ. ويقول أيضاً: " الإنسان يتبع القياس دائماً فى كلامه، وما جداول التصريف، والإعراب، التى تذكر فى كتب النحو إلا نماذج يطلب إلى التلميذ محاكاتها." هـ [1]

ومما يدل على وجود القياس النحوى جنباً إلى جنب مع اللغة ما يأتى:

* اللغة العربية نشأت وتنوعت لهجاتها تنوعاً كثيراً؛ لدرجة أن كل قبيلة لا تعرف ما عند الأخرى من أمور تركيبية، وألفاظ، ومترادفات، واستعمالات متعددة، فأبناء القبيلة كانوا يقيسون فى استعمالاتهم ما تلقوه وتعلموه من آبائهم فى كيفية أداء اللغة بنحوها وصرفها.

* اللغة ليست إرثاً، وإنما هى اكتساب يكتسبه الفرد من بيئته اللغوية؛ فالإنسان يكتسب من بيئته اللغوية طرق التعبير المتعددة، كالتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، والرفع والنصب... إلخ.

---

(١) اللغة لفندريس ص ٢٠٥ ترجمة: عبد الحميد الدواخلى، ومحمد القصاص القاهرة ١٩٥٠م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

* عدم انتشار اللحن قبل الإسلام دليل على وجود نظام مقيس فى سلوك اللغة، فأبناء اللهجة الواحدة ــ بلا أدنى شك ــ قد عرفوا مواطن الصواب والخطأ فى لغتهم، فعمدوا إلى الصواب، وتركوا الخطأ.

* من الأمور العقلية التى تؤكد ما ذهبنا إليه ألا يوجد فرد من أبناء اللغة (اللهجة) يكون غير قادر على التمرس بأساليب لغته، ويعمد إلى استخدام ما يسهل عليه تاركاً لغته إلى ذلك السهل الميسور؛ لكن التاريخ لم يذكر أن فرداً أو جماعة شذت عن لغتها، أو شذت فى بعض الأشياء دون بعض مما يؤكد أن أبناء القبيلة كانوا يسيرون على نمط مقيس، ونظام متبع فى الأداء اللغوى، وما وجد من تعدد الاستعمالات فى اللغة هو من قبيل اللهجات التى نقلها الرواة عنهم.

وقد تميز هذا القياس بطابعين:

الطابع الأول: الصوغ القياسى:

من المعروف أن اللغة جزء من حياة العربى، يرتبط بها حلاً وارتحالاً، ونظراً لطبيعة البيئة أنذاك فقد صعب عليهم الانتقال والترحال إلا طلباً للعيش، أو فراراً من العدو، وفى غير هاتين الحالتين يسكن العربى فى موطنه، ويعيش نظاماً لغوياً موحداً.

وكان أهم ما يميز هذا الطابع القياسى عدم الاختلاف فى الوظائف النحوية، وإنما يأتى الخلاف فى الوحدة البنيوية للكلمة فقبيلة تذهب بجمع مفرد غير التى تذهب إليه الأخرى، فقبيلة تذهب إلى تصحيح كلمة بينما تعلها الأخرى، وقبيلة تثنى وتجمع بطريقة غير التى تجمع بها الأخرى، وهو وضع اصطلاحى لأى استعمال تتفق عليه أفراد القبيلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

الطابع الثانى: الانتقاء:

كانت تحكم هذا الطابع عادات لغوية كالمحافل العامة، وأسواق كسع والشراء؛ ومواسم الحج، فكانت فى مثل هذه العادات تستعمل لغة أدبية موحدة تكون قاسماً مشتركاً بين القبائل جميعاً وهو ما يسمى بلغة الأدبية، أو لغة الشعراء.

منهج القياس:

المنهج الأول: المنهج التعليمى أو الانتحائى:

نستطيع من خلال الواقع اللغوى أن نستنتج منهج القياس النحوى فى تلك المدة، فقد كان المنهج فى تلك المدة يعتمد على التعليم، والانتحاء، ومن الظواهر التى تدل على هذا المنهج: ظاهرة التثنية والجمع، وظاهرة التذكير والتأنيث، وظاهرة التعريف والتنكير، وظاهرة التنوين، والحذف والإعلال والتحقيق... إلخ.

فكانت هذه الظواهر تؤدى بضوابط معينة، فالإنسان العربى يتعلم هذه الظواهر من سلفه، وينحو نحوهم، وإن كانت بعض القبائل لها ضابط يخالف القبائل الأخرى فى بعض الظواهر، كبنى الحارث بن كعب فى إلزام المثنى الألف، وكبعض القبائل فى كسر نون الجمع، أو فتح نون المثنى، ولكن هذه الأمور تعد من النوادر بالنسبة لاستعمال عموم القبائل.

المنهج الثانى: المنهج الالتزامى:

هذا المنهج يبدأ من حيث انتهى الأول؛ فقد كان العربى يلزم نفسه بلغة أدبية مقيسة ، ينظم من خلالها شعره، ونثره، وخطبه فى المحافل العامة، وفى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

وجدت بعض الفوارق بين ما تعلمه فى قبيلته، وبين ما التزمه فى شعره، وخطبه، ومما يدل على وجود هذين المنهجين فى القياس: " أنه سمع عن بعض العرب القدماء فى حوار بينه وبين أحد اللغويين قوله: " ليس هذا لحنى ولا لحن قومى "هـ[1]

ما على هذا النوع من القياس:

من الأمور التى تلحظ فى هذا النوع من القياس:

* التقديس التام لكل مسموع دون مناقشة أو إبداء رأى، فلم يفكر أحد منهم فى أمر اللغة، أو لم يحفزه التخالف على التفكير فى هذه الظاهرة فسلموا الأمر للموروث، وإن وجدت بعض الانتقادات فى الأسلوب الشعرى؛ لأنه كان مفخرة لهم.

* غياب النقد والانتقاد للأداء العربى للغة؛ فلو قدر لهذا الأداء مجموعة من الذين يقفون عند كل مسموع يحللون، ويقدمون وجهات النظر المبنية على القدرة الفردية، لأمكن الوصول إلى فكر لغوى نستطيع من خلاله تلمس معايير القياس آنذاك.

* الاتفاق من العرب جميعاً حول الوظائف النحوية؛ فلم يختلف أحد منهم حول المبتدأ ورتبته فى الجملة، ومدى احتياجه للخبر بعده، وكذا ماهية الفاعلية والمفعولية، والتابع والمتبوع... إلخ.

---

(١) نقلاً عن أسرار العربية د / إبراهيم أنيس ص ٢٠٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

* قلة التفكير فى تنوع الأداء اللغوى قبل اللحن، فلو توفر هذا الأمر لأبناء اللغة لوجدت رؤى تحليلية نقدية يستقيم معها الأمر بنسب متفاوتة تبعاً لفكر المحلل من جانب، ولقوة النص ورصانته من جانب آخر.

* ازدواجية الأداء خلق نوعاً من الاضطراب فيما بعد من ناحية القياس فمن يقصر باعه فى البحث حول ما يقاس عليه ستختلف نتائجه بالطبع عمن طال باعه فى البحث والدراسة فى أمور اللغة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

الفصل الثانى

القياس العلمى (المدروس) [1]

من المعروف بداهة أن الشيئ لا يتضح إلا بضده، فالشيئ يكون موجوداً ولا يكتب له الظهور إلا بظهور ضده، وهذا شأن القياس لم يظهر إلا بظهور ما خالف المعهود والمقيس... وهو اللحن، وهذا النوع من القياس بدأ بعصر الإسلام، ولكنه أخذ طابع التدرج شأنه شأن أى علم يبدأ صغيراً ثم يكتمل.

ومما يدل على وجود القياس (القياس العلمى) قبل المدة التى قررها النحاة: ظهور اللحن فى لغة المتكلمين، ومعرفة موضع اللحن فى الكلام، ورد اللاحن إلى الصواب؛ فمن ذلك ما روى عن الرسول ﷺ عندما لحن رجل بحضرته؛ فقال: " أرشدوا أخاكم فقد ضل " [2]، كما روى أن أحد ولاة عمر ــ رضى الله عنه ــ كتب إليه كتاباً به بعض اللحن، فكتب إليه عمر ــ رضى الله عنه ــ " أن قنع كاتبك سوطا " [3] هذا بالإضافة إلى ما ذكر من أدلة عامة على

---

(١) فى الفصل السابق دللنا على وجود القياس، وقد كان قياساً للأنظمة، وهذه المدة تشمل مرحلة ما قبل الإسلام، أما عصر الإسلام فقد بدأ القياس العلمى بداية غير مكتملة، وما وصل إلينا كان إرهاصاً للكمال شأنه شأن أى علم يبدأ ناقصاً ثم يكتمل.

(٢) راجع كنز العمال ١٥١/١، والمدارس النحوية لشوقى ضيف ص ١١.

(٣) راجع الخصائص ٨/٢ ومن هذه المرويات التى ملأت بطون الكتب، ونحن نشير إليها للاستئناس: روى أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة: ٣٧) بنصب الخاطئون، وقد نسب إليه أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: من الآية ٣) بجر ورسوله. ويروى أن زياداً دفع أبا الأسود لوضع النحو ففكر فى حيلة، فبعث رجلاً يقعد له بطريقه، وأمره أن يقرأ شيئاً من القرآن، ويتعمد فيه اللحن، فقرأ قوله: أن الله برئ... الآية ؛ فاستعظم ذلك أبو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

وجود القياس النحوى جنباً إلى جنب مع اللغة، أما ظهور اللحن فكان دافعاً إلى تقنين قياس مدروس.

فهذه المرويات التى ذكرت فى المتن والحاشية على سبيل التمثيل لا الحصر لتدل دلالة قاطعة على وجود القياس، وأن العربى لديه معايير يقيس بها لغته، أو ما يسمعه من منها، كما أن تأريخ العلماء لظهور القياس بابن أبى إسحاق ليس منصفاً، وإنما كانت له يد فى مراحل القياس العلمية، لا فى وجود القياس أو ظهوره.

يقول أحد المحدثين: " النحو العربى نشأ فناً قبل أن يكون علماً، أى: أن هذه الطرق الخاصة بالأداء فى اللغة قد التزمت باطراد فى تراكيبها، وأساليبها،

=الأسود، وقال عز وجه الله: إن الله لا يبرأ من رسوله × فرجع إلى زياد فقال: يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت، وروى أن ابنته قالت ذات يوم: ما أحسنُ السماء ــ بضم أحسن وهى تريد التعجب ــ ففهم أنها تستفهم فقال لها:نجومها، فقالت يا أبت: إنما أخبرك، ولم أسألك، فقال لها: إذن فقولى: ما أحسنَ السماء بالنصب، وتروى نفس الرواية مع اختلاف المعنى: فقالت: ما أشدُ الحر... وباقى الأثر مشترك.

ومما يروى أن مؤذناً سمع يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال له أعرابى: ويحك تفعل ماذا، أو أن أبا عمرو بن العلاء مر بالبصرة فوجد رقاعاً مكتوباً عليها: لأبو فلان، فقال: يا رب يلحنون ويرزقون. وروى أن رجلاً دخل على زياد فقال له: إن أبينا هلك، وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا، فقال== == له زياد: ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك... وأكتفى بهذه الإشارة إلى مرويات اللحن ومن أراد المزيد فليراجعها فى كتب التراجم والأخبار.

تراجع هذه المرويات فى (كنز العمال ١٥١/١، الخصائص ٨/٢، تاريخ النحو للأفغانى ص ١٠، ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢٤٥/١، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٢٣/١، البحث اللغوى عند العرب ص ٦٧) والمراجع حول هذا الأمر كثيرة وأكتفى بما ذكرت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

ومرنت عليها ألسنة العرب، وتمكنت من طبائعهم قبل أن توضع لهـا القواعـد النحوية." هـ (١)

كما أن هذه المرويات تحمل فى طياتها ما يبرهن على وجود العقل الذى يفكر، وأن الأذهان تحوى فى داخلها قانوناً لغوياً محكماً يعرف به صواب مـن يتكلم ويستعمل اللغة، وإلا فكيف صوبوا خطأ من أخطأ ؟، أو: قل كيف استدلوا وحكموا على ما سمع بأنّخطأ ؟، أو قل: لماذا لا يكون ما سمع صواباً وغيـره خطأ ؟.

والجواب على كل هذا: وجود قواعد منروسة ومحفوظة يتبعها اللسان، ولا يخرج عنها، وإن لم تخرج على هيئة علم مكتوب يتعلم منه كـل مـن أراد التعلم لغرض دينى أو دنيوى، أو كل حديث عهد باللغة العربية.

فالرسول ﷺ صوب وكذا الصحابة رضوان الله عليهم، كما فعـل ابـن إسحاق، ولكن الحاجة لم تكن ملحة إلى دراسة اللغة؛ لأن اللغة ما زالت سـليمة لأبنائها لم تعرف اللحن كما عرفته فيما بعد، أو أن انشغال العرب آنذاك بالأخذ، والرد حول الدين الجديد صرف من دخل فى الدين إلى نشره، وصرف الذين لم يدخلوا فى الدين إلى محاربته.

فلماذا لا يعد الذين صوبوا الأخطاء، وعرفوا موضـع الـصواب مـن القياسيين وإن كان قياسهم يتسم بمرحلة معينة هى مرحلة القواعد الذهنية المقننة، والتى لم تخرج إلى الناس كعلم لعدم الحاجة.

---

(١) البحث اللغوى عند العرب لأحمد مختار عمر ص ٦٣ عالم الكتب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

مراحل هذا القياس: [1]

المرحلة الأولى: مرحلة التصويب:

وهذه المرحلة تشمل عصر صدر الإسلام إلى عصر أبى الأسود الدؤلى، وهى مرحلة اتسمت بتصويب كل ما خرج عن القاعدة دون التعليل لهذا التصويب.

وامتازت هذه المرحلة بأنها لم يحاول أحد منهم أن يجمع هذه الألحان ـ كجمع الشعر مثلاً ـ ويبين صوابها، ويذكر لهم بعض القوانين الذهنية التى يستعملونها فى حديثهم.

وكانت هذه المرحلة قريبة عهد بالجاهلية؛ فاللسان ما زال سليما، وما ظهر من لحن أمكن رده، ولم يؤثر فى اللسان، فلم تكن الحاجة ملحة إلى الدراسة، والتفكير فى أمر اللغة.

فتكاد تكون عملية القياس التى كان طابعها التصويب بسيطة جداً، واكتفوا بالرد دون التعمق والبحث فى الظواهر اللغوية.

سمات هذه المرحلة:

١ـ وجود نسق متحد أو يكاد فى الأداء اللغوى والقياس عليه، وهو القرآن الكريم.

---

(١) وبهذا يكون قد سبق القياس العلمى مرحلة واحدة هى مرحلة: القياس الذهنى، أو القواعد الذهنية المضبوطة عند الجميع، فإذا أردت أن تجمع مراحل القياس فهى: مرحلة: قياس الأنظمة.... ومرحلة التصويب.... إلخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

٢ــ معرفة أن الكلمة فى وظيفتها يمكن أن يكون لها أكثر من وجه أو وظيفة فى الاستعمال، كأن تروى كلمة بالرفع، أو بالنصب، وفى كل رواية تكون لها وظيفة مغايرة، وهذا ما مثلته القراءات القرآنية، وجاءت به.

والقراءات القرآنية هى وجوه سمح بها النبى ﷺ فى قراءة نص المصحف؛ وذلك قصداً للتيسير على أمته. (١)

٣ــ اتساع اللغة الأدبية الفصيحة بنزول القرآن الكريم، وباتساع رقعة الإسلام، وإقرار القرآن بعض اللهجات العربية، وجعلها لساناً له يتلى آناء الليل، وأطراف النهار.

٤ــ وجود أو كثرة المرجعيات النحوية التى يمكن الرجوع إليها فى بعض التراكيب والقياس عليها، وتتمثل هذه المرجعيات فى القرآن الكريم، والقراءات القرآنية، والأحاديث النبوية؛ هذا بالإضافة إلى مرجعية الشعر العربى والنثر.

المرحلة الثانية: مرحلة التفكير:

لما كثر اللاحنون فى شبه جزيرة العرب، ولم ينفع رد اللحن أمام هذه الكثرة نظراً لاتساع البلاد التى دانت للإسلام، وكثرة المسلمين من غير العرب؛

---

(١) القراءات القرآنية هى وجوه متعددة نزل بها القرآن الكريم، وسمح للمسلمين أن يقرأوا بها، يقول ابن الجزرى: " كانت العرب الذين نزل بلغتهم القرآن الكريم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى يعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى حرف آخر... كما أشار إليه ﷺ حين أتاه جبريل ــ عليه السلام ــ فقال له: " إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال ﷺ: أسأل الله معافاته ومعونته ؛ إن أمتى لا تطيق ذلك، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف " (النشر ٢٢/١).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

لذلك بدأ العلماء التفكير فى هذا اللحن الذى سيؤثر على الأداء اللغوى من جانب، وعلى قراءة القرآن وتعلمه من جانب آخر.

على أن التحديد الزمنى الدقيق لبداية هذا العلم أمر محوط بالغموض؛ فما زالت الروايات متضاربة فى بداية التفكير فيه كانت ممن، الأمام على ؟ أو أبى الأسود.

يقول بروكلمان: " يبدو أن أوائل علم اللغة العربية ستبقى دائماً محوطة بالغموض والظلام؛ لأنه لا يكاد ينتظر أن يكشف النقاب بعد عن مصادر جديدة تعين على بحثها ومعرفتها."هـ[1]

لذلك ــ والله أعلم ــ تبدأ هذه المرحلة بكثرة اللحن فلم يعد فردياً يمكن تصويبه، أو يحمله حدث، أو موقف يذهب معه ويتناسى؛ بل أصبح تياراً جارفاً يخشى معه اختلاف الناس حول كتاب الله وطرق قراءته.

فالهدف دينى بحت فلم يكن البحث والتفكير ذاتياً للنحو، وإنما كان الهدف هو الخوف على لغة القرآن من اللحن الذى حدث من أناس لا عهد لهم بلغة العرب، وبالتالى سيؤدى اختلاف الألسن إلى اختلاف قراءة القرآن خصوصاً بعد وفاة الرسول ﷺ.

فالأمر لم يكن ذاتياً للنحو، وإنما كان دينياً بحتاً هدفه الحفاظ والمحافظة على كتاب الله تعالى من الاختلاف حوله، وتشتيت الناس فى أمر القراءة.

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ١٢٣/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

ويمكن أن يؤرخ لهذه المرحلة من عهد أبى الأسود الدؤلى [1] إلى عهد الخليل بن أحمد الفراهيدى، على أن التفكير فى هذا الأمر كان من أبى الأسود، ومن أتى بعده من تلاميذه، فكان على هيئة ملحوظات لغوية غير قادرة على القيام بالأعباء المنوطة باللغة أمام وفود العرب وغير العرب المتنوعة الألسن والأداء.

فتسلح هؤلاء بمعرفة كلام العرب بما لديهم من عقول قادرة على ذلك، وبالحماس، والحمية العربية التى جعلت الحفاظ على اللغة هدفاً قومياً، ودينياً يتعبد به.

وكان القياس فى هذه المرحلة له مجالان متنوعان: القرآن الكريم وقراءاته، والكلام العربى المحفوظ عبر الشعر والخطب.

فبدأ التفكير فى القياس المضبوط ــ وإن لم يكن ذاتياً ــ وسار فى الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: وضع دلائل الوظائف النحوية:

هذه الخطوة قام بها أبو الأسود الدؤلى عندما قام بوضع نقط الإعراب، فالأثر المروى فى ذلك يدل دلالة قاطعة على أن ما قام به هذا الرجل هو أولى الخطوات فى القياس المضبوط والمدروس، فقد نقلت لنا المصادر هذه الرواية، وهى:

---

(١) هناك خلاف بين المؤرخين حول نسبة بداية هذه المرحلة إلى الإمام على ــ كرم الله وجه ــ ونسبته إلى أبى الأسود، وهذه الجزئية ليست محل دراسة هذا البحث الذى يعنى بالقياس النحوى، وبدايته، وتطوره، ولا يعنى بخلاف النسابين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

" اتخذ أبو الأسود الدؤلى كاتباً حاذقاً من بنى عبد القيس، وقال لـه: إذا رأيتنى قد فتحت شفتى بالحرف فانقط نقطة فوقه ــ على أعلاه ــ وإذا ضممت شفتى بالحرف فانقط نقطة بين يدى الحرف، وإن كسرت شفتى فاجعل نقطة من تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين، وابتـدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره، بينما كان الكاتب يضع النقط بصبغ يخالف لونه لون المداد الذى كتبت به الآيات. "هـ [1]

هذا العمل المتكامل من أبى الأسود شمل جميع حركات بنيـة الكلمـة، ومن هذه الحركات حركات الإعراب التى توضع فى آخر الكلمة لترمـز إلـى المعنى النحوى الذى جلبه العامل.

فهذا العمل يدل على أنه بداية التفكير فى القياس النحوى وتأمل الظواهر النحوية ــ وإن لم يكن ذاتياً ــ ولكنه عمل دينى، ولكى يكون متكـاملاً فـرض عليهم التفكير فى ضوابط قياسية، وقواعد يتعلمها كل من أراد أن يقرأ بلغته التى أنزل بها.

ومما يؤكد ما قلته: أنه قام بوضع رموز للحركات، وكان من ضمن هذه الرموز، رمز حركة الحرف الأخير من الكلمة، الذى هـو حـرف الإعـراب، والذى يتغير نطقه تبعاً لموقع الكلمة فى الجملة، فقد تكون مرفوعة، وقد تكـون منصوبة، وقد تكون مجرورة، وقد تسكن.

---

(١) المحكم فى نقط المصاحف للدانى ص ٣، والقفطى ١/٥، والفهرست ٤٠، والخط العربى وتطوره لسهيلة الجبورة ص ٥٦، ٥٧ بغداد ١٩٦٢، والمدارس النحوية ص ١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

وبذلك يكون أبو الأسود أول من أشار إلى أنواع الإعراب (رفع ونصب وجر وجزم) وهذا ما التزمه في عمله الذي قام به، وأول من أشار بعمله إلى أنواع البناء.

ومما يؤكد أيضاً أن هذا العمل هو بداية التفكير في القياس النحوي الملحوظات التي يمكن أن يكون قد لاحظها مثل: لزوم بعض الكلمات حالة واحدة دون تغيير، وذلك كأسماء الإشارة والضمائر والحروف... إلخ مما عرف بالبناء.

كما أنه لاحظ بعض الكلمات قد تغير آخرها في الآية، نحو: كلمة القرآن، والرسول، ولفظ الجلالة.... إلخ مما عرف بالإعراب.

ألم يثر حفظيته هذا التغيير، ويلقنه لتلاميذه الذين جاءوا بعده وهم كانوا يعتمدون آنذاك على التلقي والحفظ لا على التدوين.

كما أنه لاحظ في باب الحروف حروفاً عاملة بصفة دائمة كحروف الجر، وحروفاً غير عاملة بصفة دائمة كحروف العطف، وحروفاً وجدها تعمل، مرة ولا تعمل أخرى،كما النافية، نحو قوله تعالى: ﴿ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ ﴾ [2] ، وغير ذلك من الحروف العربية.

كما أنه لاحظ كلمة تغن، وأخرى لا تغن (تنون)، وهذا ما يشمل باب الممنوع من الصرف، كما أنه لاحظ كلمات تنصب بالفتحة، وقد نطقها بالكسرة

---

(١) من الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٢٤ من سورة المؤمنون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

وبذلك يكون أبو الأسود أول من أشار إلى أنواع الإعراب (رفع ونصب وجر وجزم) وهذا ما التزمه في عمله الذي قام به، وأول من أشار بعمله إلى أنواع البناء.

ومما يؤكد أيضا أن هذا العمل هو بداية التفكير في القياس النحوي، المحفوظات الذي يمكن أن يكون قد لاحظها مثل: لزوم بعض الكلمات حالة واحدة دون تغيير، وذلك كأسماء الإشارة والضمائر والحروف... إلخ مما عرف ببنائه.

كما أنه لاحظ بعض الكلمات قد تغير آخرها في الآية، نحو: كلمة القرآن، والرسول، ولفظ الجلالة.... إلخ مما عرف بالإعراب.

ألم يثر حفيظته هذا التغيير، ويلقنه لتلاميذه الذين جاءوا بعده وهم كانوا يعتمدون آنذاك على التلقي والحفظ لا على التدوين.

كما أنه لاحظ في باب الحروف حروفاً عاملة بصفة دائمة كحروف الجر، وحروفاً غير عاملة بصفة دائمة كحروف العطف، وحروفاً وجدها تعمل، مرة ولا تعمل أخرى،كما النافية، نحو قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ ﴾ [2] ، وغير ذلك من الحروف العربية.

كما أنه لاحظ كلمة تغن، وأخرى لا تغن (تنون)، وهذا ما يشمل باب الممنوع من الصرف، كما أنه لاحظ كلمات تنصب بالفتحة، وقد نطقها بالكسرة

---

(١) من الآية ٣١ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٢٤ من سورة المؤمنون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

كجمع المؤنث السالم، أو سبقها حرف جر، ومع ذلك فتحت، وهو المعلوم من الصرف.... إلخ.

كما أنه لاحظ كلمات آخرها لا يتغير حركته، وإنما يتغير الحرف قبله يكون واواً أو ألفاً، ومرة ياء، وهذا ما يعرب بالحروف كالمثنى، وجمع المذكر السالم، وكلمات يحذف آخرها كالأفعال المبنية أو المجزومة المعتلة... إلخ.

فلا يخفى علينا جميعاً أن عقلية كعقلية أبى الأسود لا يمر عليها مثل هذا سدى، ولا يتطاير هذا الأمر هباء دون أن يكون قد استجمع فى قريحته ما ينهض بعلم جديد ذى قواعد مقيسة ومضبوطة.

بل الغريب فى هذا الأمر هو أن أبا الأسود هو الذى يقوم بعملية القراءة، وإحداث أصوات الحروف، فهو الممسك بزمام الفتح، والكسر، والضم، والسكون، والحذف والإثبات؛ فعرف أن لكل كلمة ضبطاً مقيساً مستمداً من لغة العرب، والقرآن محكم، ومتشابه فلم يلبسه هذا الأمر؛ لأنه يسير على قياس معروف، ونحن فى زماننا، أو أزمان سابقة، نتردد فى ضبط كلمة واحدة متشابه الموضع ــ مع اختلاف الضبط ــ.

فكيف سار هذا الرجل فى رحلته الإيمانية من أول المصحف إلى آخره دون أن يخل، أو يخونه علمه الواسع، أو حافظته فى أن يتردد فى ضبط آخر الكلمة المضطربة ــ مرة بالتنوين ومرة بغيره، ومرة بالحرف، ومرة بالحركة، ومرة بالحذف ومرة بالإثبات... ــ ؟ فالجواب: إنه القياس الذى سار عليه فى رحلته التعبدية الإيمانية، خوفاً على هذا الدستور أن يلعب به هوى الألسن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

فمما لا شك فيه أنه فكر فى كل الظواهر النحوية المطروحة، وقنن لها ولقنها لتلاميذه من بعده؛ لأنه لم يكن شغله بهذه الظواهر؛ أكثر من شغله بالقرآن.

وقد أطلقت عبارة لصقت بعبد الله بن أبى إسحاق، وقد أطلقها ابن سلام فلصقت به، وهى:" أول من بعج النحو، ومد القياس، وشرح العلل " [1]وإن أبا الأسود يستحق أكثر من هذا القول؛ فهو أول من فتح القياس، ورسم خطوطه، وزرع أصوله، ولاحظ ظواهره من خلال العمل الذى قام به؛ وقد فرغ كل هذا فى عقول تلاميذه.

يقول أحد المحدثين: " كانت العربية عند أبى الأسود وجيل تلامذته ملاحظات لظواهر لغوية لم تكن منظمة فى أبواب أو موضوعات، وإنما كانت تدور فى مسائل تخص إعراب القرآن وفق النقط الذى وضعه أبو الأسود، وأخذ يبثه فى أذهان تلامذته وغيرهم، ينقطون به المصاحف [2].

ولعل هذا هو الفارق بين صنيع أبى الأسود، وعبد الله بن إسحاق؛ فأبو الأسود لم يمد الأمر ويجعله يشمل كلام العرب؛ لأن همه كان منصباً على القرآن خوفاً من الاختلاف والتعدد فى قراءاته، أما ابن إسحاق فقام بمتابعة الظواهر فى كلام العرب، وتحليلها، والحكم عليها على هدى من ملاحظات أبى الأسود، ونظراته وفق الضوابط التى سار عليها أبو الأسود فى عملية نقط المصحف، وما استنتجه من هذه العملية وأودعها عقول تلاميذه.

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١٤.

(٢) فى التفكير النحوى عند العرب د / زهير غازى ص ٥٥ عالم الكتب.

Scanned by CamScanner

الخطوة الثانية: قياس الوظائف النحوية:

هذه الحقبة تعد مطموسة فى تاريخ القياس النحوى؛ فلم يذكر عنها شيئ سوى أسماء علمائها، كنصر بن عاصم، ويحي بن يعمر، وعبد الرحمن بن هرمز ... ولكننا نستطيع أن نتلمس بعض الأمور من خلال استعانة العلماء باللغة لفهم هذا الكتاب ــ وفهم معانيه ــ الذى جاء بأسلوب معجز، ذهب بأولى الألباب إلى حيرة فى حسن نظمه.

ففى حقبة ما بعد أبى الأسود هيمن على العلماء حب اللغة، وتدارسها، حيث تعددت قراءات القرآن، وتعددت الأوجه الإعرابية؛ فهيمنة اللغة على كل العلوم، دفع هؤلاء إلى دراسة اللغة بنحوها، ومعرفة المعانى النحوية، وكيفية إعراب كل كلمة فى الجملة؛ فقد كانت اللغة ــ وما زالت ــ مفتاحاً لكل العلوم، كعلم القراءات، وعلم التفسير، والحديث.

فاهتموا بالنحو والقياس؛ وكان من مظاهر القياس عندهم: قياس الكلام على الكلام، وقياس المعانى النحوية، كما فعل ابن إسحاق مع الفرزدق الشاعر؛ هذا بالإضافة إلى أن إتقان النطق باللغة سليماً يعد شرفاً للعربى لا يحظى به إلا من هو عالم بأمورها.

ومن مظاهر القياس أيضاً فى هذه الحقبة: المتابعة والمراقبة للناطقين باللغة، أى: مراقبة الناطقين فى كلامهم، وكيفية تطبيق تلك الوظائف، وتمثلت هذه المراقبة فى مراقبة لغة الخطباء فوق المنابر، والأئمة فى الصلاة، ومما روى فى ذلك أن الحجاج سأل يحيى بن يعمر: أترانى ألحن على المنبر ؟ فقال يحيى ــ خوفاً من سطوة الحجاج وجبروته ــ: الأمير أفصح الناس إلا أنه لم يكن ليروى الشعر، فكرر الحجاج سؤاله، فقال يحيى: نعم فى آى القرآن، فقال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

الحجاج: فذاك أشنع وما هو ؟ قال: تقول: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١) برفع أحب وصحتها أحب بالنصب، فقال له: لن تسمعنى ألحن بعد ذلك، وأبعده إلى خراسان. (٢)

الخطوة الثالثة: القياس المدروس والمعلل:

هذه الخطوة تشمل الجيل الثالث، وهى تعنى القياس المضبوط بضوابط يستقيم معها أى كلام منطوق مع المقارنة بينه، وبين ما ورد عن العرب، والحكم على كل هذا الوارد، والمنطوق بعد استقراء القاعدة مما نطقت به العرب.

وتميزت هذه الخطوة بالتدليل، والتعليل لكل حكم نحوى يصدر حول رواية، أو بيت شعرى؛ فاتسع القياس عند العلماء، وظهرت بعض المؤلفات التى تحمل قياساً منظماً ومدروساً، ومن ذلك إشارة المصادر إلى كتاب: الجامع والإكمال لعيسى بن عمر.

ومن أهم ما يميز هذه الحقبة المنهجية الموضوعية للقياس؛ فعنى ابن إسحاق بالهمز، ومهر فيه حتى كان له كتاب (٣)، ومن تعليل ابن إسحاق للقياس أنه ذهب فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(٢) انظر: طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٢٢ ط الخانجى، والبيان والتبيين للجاحظ ٢١٨/٢، ومن تاريخ النحو ٢ ١٢.

(٣) راجع النحو العربى لمازن المبارك ص ٤١ القاهرة ١٩٦٥م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ [1] فقد اعترض على قراءة الرفع، ورجح قراءة نصب السارق [2]؛ لأن الخبر فعل أمر، ولا يخبر بالجملة الطلبية.

قال سيبويه: " وكان عيسى بن عمر يقول: " يا مطراً يشبهه بقوله يا رجلاً يجعله إذا نون وطال كالنكرة، ولم نسمع عربياً يقوله، وله وجه من القياس إذا نون وطال كالنكرة." هـ [3]

ومن ذلك الرواية المشهورة بين أبى عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر حول قول العرب: ليس الطيب إلا المسك ــ برفع المسك ونصبه ــ فقد أعمل هذان العالمان القياس، وتلمس كل منهما وجهاً من لغة العرب. [4]

كما تتميز كذلك بكثرة الرواية التى كان يمثلها يونس بن حبيب؛ فكانت تغلب عليه رواية اللغة، والمتصفح لآراء يونس فى الكتاب يجد ذلك واضحاً جلياً.

وأهم ما يميز هذه الحقبة أيضاً: اعتماد أول منهج للقياس، وإن شئت فقل: قانوناً سار عليه الخلف والسلف، وهو: القياس على الأكثر، وذلك فى المقولة التى أطلقها أبو عمرو بن العلاء عندما سئل فيما خالفته فيه العرب قال: " أعمل على الأكثر، وأسمى ما خالفنى لغات ".

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة المائدة.

(٢) راجع شواذ القراءات لابن خالويه ص ٣٢

(٣) الكتاب لسيبويه ٢٠٣/٢.

(٤) راجع: من تاريخ النحو العربى ص ٣٦، ٣٧، ونشأة النحو ص ٦٢، ويونس د/ حسين نصار ص ٢٢ سلسلة أعلام العرب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

وهذه المقولة رسمت شقاً كبيراً من القياس وهو القياس على الأكثر، وإبعاد القليل عن القياس، ولم يكتف بهذه الأصول وحسب بل أوجد للقليل باباً يصنف تحته فلا يهمل، وإنما يندرج تحت اللهجات العربية التى يجب ألا تزاحم اللغة الأدبية فى إجراء القياس النحوى.

فصار للنحاة وللنحو نفوذاً لا ينكر، واتخذ العلماء فى باقى التخصصات؛ النحو قبلتهم، وأصبحت مخالفة قواعده خطأً من قدرهم؛ كما أصبح النحاة أصحاب مكانة ومرجعاً يفزع إليهم العلماء.

يقول الدكتور إبراهيم أنيس: " وقد بلغ من نفوذ النحاة وسلطانهم أن وصفوا كل خروج على قواعدهم الإعرابية باللحن، وأصبح هذا اللحن وصمة وعاراً، وأصبح كافياً للحط من منزلة الخطيب أو الشاعر، وللحط من مكانة الرجل فى الهيئة الاجتماعية. " هـ [1]

وخلاصة الأمر: أن هذه المرحلة فكرت ولاحظت الظواهر النحوية، ووضعتها فى قواعد نحوية، وطبقتها على الكلام والشعر، ورسمت منهج القياس النحوى للدارسين فيما بعد.

المرحلة الثالثة: إجراء عملية القياس والتوسع فيه:

هذه المرحلة تمتد من عصر الخليل بن أحمد الفراهيدى حتى عصر الفارسى وابن جنى، وقد وجدت لهذه المرحلة سمات غالبة، ومن هذه السمات:

---

(١) من أسرار العربية ص ٢٠١ ط ٥ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned by CamScanner

أولاً: سمة التميز:

امتازت هذه المرحلة بسمات غلبت عليها، وتميزت بها عن المراحل السابقة، ومن مظاهر هذا التميز:

١ـ كثرة العلماء، وتفردهم بالعبقرية الفذة ـ كالخليل بن أحمد ـ وتفرغهم الكامل للنحو والصرف أكسب عملية القياس سعة ومرونة، حتى شملت روايات عربية نقلها علماء أجلاء كالأصمعى، ويونس.

٢ـ قاموا بوضع الأصول، وفرعوا عليها الفروع، كقولهم: الحرف لا يعمل منه إلا المختص، والأسماء أصلها الإعراب، والأفعال أصلها البناء، والإعراب بالحركات أصل، وما خرج عن هذه الأصول عد فرعاً تفرع عن أصله.

٣ـ قاموا فى هذه المدة بعملية الاستقراء لكلام العربى، وأخذوا نماذج من كلام العرب، وقاسوا عليه.

٤ـ قام أصحاب هذه الحقبة فى تاريخ النحو بمشافهة العرب الذين لم تفسد لغتهم، كما فعل الخليل، والكسائى.

٥ـ قاموا بدراسة بنية الكلمة، وما يعترضها من حذف، وإثبات، وهو ما عرف فيما بعد بعلم التصريف.

٦ـ قاموا بالتدوين، والتأليف، وتسجيل آراء العلماء فى مؤلفات كما فعل سيبويه فى كتابه، وغيره.

٧ـ نشطت المنافسة بين العلماء، ومحاولة كل منهم إظهار قدرته الذهنية، والفوز على مخالفه؛ فكثرت المناظرات بينهم.

Scanned by CamScanner

ثانياً: سمة المنهج:

منهج القياس فى تلك الحقبة كان مختلفاً نظراً لوجود العصبية المكانية؛ فانقسموا فريقين: فريق بصرى، وفريق كوفى، وكثر الخلاف بينهم، وقد أثر هذا الانقسام على عملية القياس، ومعلوم منهج كل فريق فى القياس، وكتب فى ذلك مؤلفات عدة.

فسلك البصريون فى منهجهم الاعتماد على الكثير الشائع، فلم يبنوا قواعدهم وقياسهم إلا على ما كثر من كلام العرب، ونسب إلى قوم فصحاء، كما حددوا مكان وزمان القياس.

أما الكوفيون فقد اعتمدوا على كل ما ورد عن العرب قل أو كثر وروده عن العرب. (١)

ثالثاً: ما على هذه المرحلة:

١ــ كثرة الشكوى من النحو والنحويين، قال الجاحظ للأخفش: " أنت أعلم الناس بالنحو، فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟، وما بالنا نفهم بعضها، ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص، وتؤخر بعض المفهوم ؟.... " هـ (٢)

---

(١) من المؤلفات الحديثة التى ذكرت منهج الفريقين: مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو د/مهدى المخزومى، والمدارس النحوية لشوقى ضيف، والبحث اللغوى عند العرب د / أحمد مختار عمر، وأصول النحو العربى د / محمد عيد، والأصول د / تمام حسان، ومن أسرار العربية د / إبراهيم أنيس.

(٢) الحيوان للجاحظ ٩١/١ تحقيق عبد السلام هارون.

Scanned by CamScanner

٢ــ غلبة العقل والمنطق فى كثير من القضايا النحوية؛ فقد تأثر النحاة فى ذلك الوقت بعلماء الكلام، فسمحوا للعقل أن يركب الشطط فى النحو فيختلق عللاً عقلية، وتقسيمات منطقية، وهذا لا يخدم اللغة ولا النحو؛ لأن اللغة رواية، والنحو سماع وقياس.

٣ــ اعتزاز العلماء بقدرتهم العقلية والذهنية؛ لدرجة أنهم اختلقوا أمثلة فرضية معقدة لم تتكلم بها العرب، وما ذلك منهم إلا لإظهار براعتهم وقدرتهم.

٤ــ قام العلماء بعكس ما يجب فى كل العلوم، وهو الاستقراء أولاً ثم صياغة القانون والقاعدة ثانياً، وهم وضعوا الأصول أولاً والقاعدة ثم بحثوا عما يندرج تحت هذه الأصول والقاعدة من كلام العرب؛ فاصطدموا بكلام العرب الذى لا يندرج تحت ما قعدوه وأصلوه؛ فأصدروا الأحكام (ــ شذ، ندر ــ قل ــ لم يرد ــ فصيح)، وأجدوا قضية الفرع إذا أمكن التفريع، فما الذى يضيرهم ــ بعد الاستقراء ــ لو قالوا: الاسم يبنى ويعرب، وكذا الفعل؛ فالمضارع معرب إلا فى كذا وكذا... والاسم سُمع مبنياً ــ فى الظروف مثلاً ــ، وسمع معرباً ــ فى الأعلام مثلاً ــ ؟ الجواب لا شيئ.

٥ــ النحويون قاسوا مسموع على مسموع، والصواب أن يكون القياس لغير مسموع على مسموع لوجود مشترك بينهما، وهذا يعد انحرافاً عن هدف القياس، فمثال ما فعله النحاة:

سمع عن العرب إعمال اسم الفاعل وغيره من المشتقات، ومع ذلك قاسوه على الفعل فى العمل، والإعلال والحذف... وسمع عمل " لا " النافية

Scanned by CamScanner

للجنس، ومع ذلك قيست على إن بجامع التوكيد... وكذا الأمر بالنسبة لما النافية، وليس فقيست ما على ليس بجامع الاشتراك فى النفى. (١)

ومما يلفت الانتباه أن المقيس والمقيس عليه مسموعان، ووارد ان عن العرب، وفى اللغة الأدبية النموذجية، وكل الموضوع لدى النحاة أنهم وضعوا الأصول ــ الأسماء لا تعمل، ويعمل الفعل ــ فلما وجدوا بعض الأسماء تعمل فى لغة العرب الأدبية كاسم الفاعل وغيره، قالوا إنما عمل بالقياس والحمل على الفعل.

والاثنان مسموعان فى اللغة الأدبية فلماذا لم يجعلا أصلاً قائماً بذاته فى العمل، والقضية برمتها عند النحاة، وليست فى اللغة، فهم وضعوا الأصل أولاً ثم بحثوا عن شواهد لذلك الأصل؛ فاصطدموا بأن الأسماء تعمل؛ فخرجوا من ذلك بقضية القياس، والحمل لوجود شبه بين الفعل، واسم الفاعل.

ثم إذا فكرنا فى الأمر هل العربى الذى نطق وأعمل اسم الفاعل وغيره ــ كلا، وما... ــ وبنيت على لسانه القاعدة، كان فى عقله وذهنه قضية الحمل والقياس، أو قال حتى فى ذهنه: أعمل اسم الفاعل؛ لأنه يشبه الفعل.

والقياس الذى ننشده فى علم النحو ينبغى أن يكون:

قياساً فى أمثلة لم تسمع عن العرب، وجاءت متفقة مع ما ورد عن العرب، فتكون هذه الأمثلة قياسية ومناظرة لما ورد عن العرب.

---

(١) من أراد الاطلاع على هذه القضايا فليراجعها فى كتب النحو فسيجدها مفصلة فى كل كتاب.

Scanned by CamScanner

أو يكون:

قياساً بتوسيع باب اللغة، ومد جذور القياس، فنقيس بعض الأمثلة التى من الممكن أن تكون قد استحدثت فى عصر من العصور (حديثاً أو قديماً) فيدخل لفظ فى لغتنا عن طريق قياس علمى منظم.

وهذا يعنى أن يكون اللفظ ممكناً لإجراء عملية القياس عليه، كقبوله الوظائف النحوية، أو لزومه حالة واحدة... إلخ من الظواهر النحوية.

كما أن المسموع الذى اعتمدوا عليه، وجعلوه مقيساً عليه لا نعرف هل يعم كل الكلام العربى، ولو بنسبة ٩٠ % تزيد أو تنقص، ولو أنهم اعتمدوا كل الفصيح المسموع لكانت النتائج حتمية، وهى ــ مثلاً ــ الإعراب يدخل الأسماء والأفعال، وكذا البناء؛ وليس أحدهما فرعاً عن الآخر فى تلك الظاهرة؛ لأن اللغة وردت ونطقت بذلك.

٦ــ صبغ القياس فى هذه المرحلة بصبغة الخلاف؛ فاختلف النحاة حول الفروع، وكان همهم صحة رأيه دون رأى الآخر، ولو على حساب العلم، كما فعل البصريون والكوفيون.

٧ــ أيضاً صبغ القياس بتحديد زمان ومكان المقيس عليه، وهذا يعد إغلاقاً أمام مهمة اللغة وصرفها، والذى يجب تحديده هو عمل القياس، أو عمل النحوى؛ فبنهاية الأزمنة، والأمكنة المحددة تكون اللغة سليمة، وبعد هذه النهاية يأتى دور القياس فى قبول ما يقبل، وما لا يقبل؛ لأنه بهذا التحديد نكون قد أغلقنا الباب أمام ظواهر تسلك منهج ما قبل التحديد، واعترض

Scanned by CamScanner

على هذا من طريق خفى، الفارسى، وابن جنى، وخرج عليه الزمخشرى مع أبى تمام، وابن الشجرى مع المتنبى.

٨ـ مما صبغ به القياس فى هذه المرحلة قضية العامل والمعمول [١] التى أرهقت الباحثين والدارسين من عهد الخليل إلى يومنا هذا، وأرى أن هذه القضية فى جانب، والأداء النحوى فى جانب آخر؛ فاللغة بنت السماع، والعربى قد أداها بسلامة وفصاحة... والنحويون فى تأصيلهم للقواعد بحثوا عن العامل، وليتهم أوجدوا عوامل وسلموا بها، وسكتوا بعد ذلك.

ولكنهم اختلفوا فما يراه نحوى عاملاً يراه الآخر غير عامل، مثال ذلك العامل فى المبتدأ والخبر، وفى المفعول، والحال... إلخ.

فهو وضعوا أصلاً منطقياً سار عليه النحاة، وهو أن كل عمل لابد له من عامل؛ فراحوا يبحثون عن العوامل؛ فوجدوا الأمر مستقيماً فى بعض الأبواب، وغير مستقيم في بعضها؛ فكثر الخلاف بينهم، وتعددت الآراء الفردية التى وردت لأجل المخالفة.

وكان يجب أن ننظر إلى قيمة العامل فى الجملة النحوية، ومدى تأثيره على الوظيفة النحوية ثم بعد ذلك نحكم بدوره فى الجملة.

فالعامل فى الخبر ــ مثلاً ــ سواء أكان المبتدأ، أم الخبر نفسه، فلا يؤثر على الوظيفة النحوية فى الجملة، ولا يؤثر على الأداء، ولا بناء القاعدة، وكذا العامل فى خبر إن، أو ما، أو العامل فى المفعول.

---

(١) هذه القضية قتلت بحثاً ولا داعى من الإطالة فيها، وممن كتب فيها ابن مضاء فى كتابه الرد على النحاة، وأيضاً محقق الكتاب الدكتور شوقى ضيف.

Scanned by CamScanner

فما سبق من خلاف فى تحديد العامل لا تجنى من ورائه ثمرة تخدم هذا العلم، وإنما الثمرة فى دراسة العامل، والقياس عليه تكون بقدر تأثيره فى الجملة، كعامل الجملة الفعلية، وكالنواسخ العاملة فى المبتدأ والخبر، ثم ما المانع أن يعمل العامل عملين ؟ كالرفع بالنسبة للفاعل، والنصب بالنسبة للمفعول... إلخ.

ولذلك يجب أن يدرس العامل كوظيفة لها وضعها فى الجملة، وله أحكام يجب مراعاتها فى التراكيب النحوية؛ لأنه لو اعتد بالعامل (المختلف فيه) فى القياس فعلى أى وجه تسير علمية القياس، ومع أى رأى يسير القياس ؟.

٩ــ مما صبغ به القياس فى هذه المرحلة قضية التأويل [١]، والتأويل استخدمه البصريون كثيراً، وكان سلاحاً لهم فى رد ما يخالف أصولهم حتى يتفق وأصولهم، والغريب فى الأمر لماذا طالما أن هناك نصاً ورد عن العرب يمكن أن يقاس عليه ؟ ــ اللهم إلا إذا كان هذا النص نادراً أو غير فصيح فالتأويل فى هذا مطلوب.

كما أن التأويل فى غالب الأحيان كان يعتمد على شخص واحد فيؤول كما يحلو له، وحسبما تجود به قريحته، كما أنه لم تكن هناك أسس يسير عليها المؤول، وضوابط تحكم العملية كاملة، كتأويل القول فى كثير من القضايا النحوية، كما أن التأويل الممقوت لا يتفق مع طبيعة العربى الذى نطق اللغة، كتأويل القول مثلاً، كما أن هذا يدلل وذاك يؤول، أو يرد أمراً غير مستحسن فى عملية القياس؛ فهل نعتمد فى القياس المؤول أم غير المؤول ؟.

---

(١) هذه القضية قتلت بحثاً ولا داعى من الإطالة فيها، وممن كتب فيها الدكتور محمد عيد، وغيره فى كتابه أصول النحو العربى.

Scanned by CamScanner

أما التأويل الذى يعد مظهراً من مظاهر اللغة وسمة غالبة لها فهو مطلوب فى الأداء والقياس، نحو: تأويل الفعل المحذوف لغرض، والمبتدأ ـ مثلاً ـ فهذا أقره الناطق أولاً ثم النحوى الذى جمع وقاس ثانياً؛ فالتأويل فى مظاهره المتعددة كالحذف، والتقدير... سمة اللغة.

المرحلة الرابعة: مرحلة التجديد:

هذه المرحلة تبدأ من الفارسى وابن جنى حيث اعتمد هؤلاء القياس بأسس جديدة بعيدة عن الخلاف، والقضايا ذات الصبغة الجدلية، ومن هذه الأسس:

١ـ التوسع فى القياس على كلام العرب؛ فما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، يقول ابن جنى عن أستاذه الفارسى: " ما كان أقوى قياسه فكأنه كان مخلوقاً له." (١)، ويقول الفارسى: " لأن أخطئ فى خمسين مسألة مما بابه الرواية، أحب إلى من أن أخطئ فى مسألة واحدة قياسية." (٢)، ومن مظاهر هذا التوسع أن الفارسى أجاز أن تكرر اللام فى الفعل الثلاثى، وتبنى منه فعلاً رباعياً أو اسماً، أو صفة، نحو: ضرب، وخرج، فتقول: ضريب، وخريج، فتقول: ضربب زيد عمراً، وضربب أكرم من خرجج... (٣)، وعلق ابن جنى على ذلك بقوله: " أفترتجل اللغة ارتجالاً، قال: ليس بارتجال، ولكنه مقيس على كلامهم فهو إذن من كلامهم. (٤)

---

(١) الخصائص ١/٢٧٧.

(٢) السابق ١/٣٥٨.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

Scanned by CamScanner

٢ــ الالتزام فى القياس على كلام العرب يقول ابن جنى: " اعلم إذا أداك القياس إلى شيئ ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيئ آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه. (١)

٣ــ الخروج عن الحد الزمانى والمكانى الذى فرض سابقاً، وتمثل هذا فى وجود فريق من العلماء كابن الشجرى، والزمخشرى، والأنبارى، وأبى البقاء، وابن الحاجب، وابن يعيش، فقاسوا ألفاظاً لم تكن سمعت من قبل نحو: خراسان وأذربيجان، فقاسوها على ما هو نظير لها فى لغة العرب فمنعوها من الصرف.

يقول الزمخشرى فى أبى تمام الذى جاء بعد التحديد: " أجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ".

سار النحاة بعد ذلك فى القياس، ودراستهم النحوية على خطى السابقين، وكانوا يميلون إلى الترجيح والاختيار بين المذاهب، أو الاعتراض على الآراء والمذاهب، وكانوا فى سبيل ذلك يبحثون عن العلل السابقة، أو يستحدثون علاً عقلية منطقية يؤيدون أو يعترضون بها، مع البراعة فى البحث عن الشواهد والقراءات التى تدلل على ذلك.

كما غلبت عليهم التفنن فى حشد المعلومات النحوية والصرفية، وهو ما اتسم به نحاة الأندلس.

وهم بهذا لم يهملوا القياس، أو يتركوه، وإنما اعتمدوا على نهج السابقين فى القياس؛ فدرسوا دراستهم، وساروا على منوالهم؛ فكثرت المؤلفات التى

---

(١) المرجع السابق ١/٢٥٥.

Scanned by CamScanner

تشرح ما أجمله السابق، وكثرت الحواشى التى اعتمدت على الشرح، أو توضيح مراد صاحب الكتاب من لفظة ما؛ ولذلك كثرت الآراء وتشعبت.

وظل هذا الأمر حتى ظهرت المجامع اللغوية فى الأقطار العربية التى ضمت خيرة العلماء من الحريصين على هذه اللغة، كمجمع القاهرة، ومجمع دمشق، ومجمع بغداد، وينحصر عمل هذه المجامع فى دراسة أى ظاهرة أو بنية والبحث عنها فى كتب التراث، وبعد دراسة متأنية ومستفيضة يصدر المجمع قراره بقياسية هذه الظاهرة أو رفضها، وما تقوم به المجامع الآن هو عمل القياس، وعمل النحوى الذى يعمل القياس.

ويتلخص عمل القياس، أو عمل النحوى فى القياس فى الآتى:

١ــ قياس مجهول على معلوم فمثلاً: عندما نجد مصدراً ولا فعل له، أو العكس، أو يذكر فعل ولا يذكر بابه؛ فيجب على المرء أن يلجأ إلى القياس ليستنبط له مصدراً، أو فعلاً.

٢ــ إكمال النقص؛ فإذا وجدت أمثلة بعد عصور الاحتجاج، أو يمكن إيجادها، مثل: كف ما إن عن العمل، وزيادة كان بين ما وفعل التعجب، فلو وجدت أمثلة على باقى الأخوات فمن الممكن قياس الكف والزيادة لباقى الأخوات.

٣ــ إخضاع الألفاظ المستحدثة لنظام اللغة، وكونها على وزن من موازين اللغة، كما فعل القدماء فى كلمات فارسية، وهو ما يعرف: بتعريب الدخيل.

٤ــ تعميم الأحكام لا تفردها فى أى عصر من العصور؛ فلا يتسرع النحوى فى إصدار الأحكام ــ كشذ أو ندر أو قل ــ قبل أن يقوم بإجراء القياس على

Scanned by CamScanner

ما هو مطلوب الحكم عليه، وبعد ذلك يكون الحكم عاماً مـن الجماعـة النحوية، وهذا ما تقوم به المجامع اليوم. (١)

***

(١) من أسرار العربية د / إبراهيم أنيس ص ١٥ بتصرف.

Scanned by CamScanner

الخاتمة

فى نهاية الرحلة النحوية التى خصتها متسلحاً بسلاح الفكر العقلى، فإن كان سلاحى ضعيفاً أو لم يصب مرماه فلربما ذلك لبعد المرمى، أو لقصور الرامى، وعلى أية حال نحمد الله على ما أعطانا الله من عقل وفكر يمكن توظيفهما لخدمة هذا العلم، والصلاة والسلام على سيد المفكرين وإمام العقلاء، وعلى أصحابه الأطهار إلى يوم الدين.

أما بعد:

ففى نهاية هذا البحث قد ظهرت لى بعض النتائج، ومن الواجب على ذكرها حتى تكون ــ حسب ظنى ــ طريقاً لكل باحث، ومن هذه النتائج:

- تناول هذا البحث القياس النحوى منذ أن جعل الله سبحانه وتعالى اللغة العربية وسيلة للتفاهم والتخاطب؛ فوضح موقف القياس النحوى من اللغة، وأثبت وجوده بوجود اللغة، وإن اختلفت صيغته على مر الأزمان والدهور.

- أثبت البحث أن العرب قدسوا كل منطوق، ولم يحاولوا أن يبحثوا فى ذلك المنطوق وظواهره، إما نقداً، وإما تسليماً، وإما تحليلاً.

- توصل البحث إلى أن القياس النحوى موجود بوجود اللغة، ولكنه فى مراحله الأولى كان قياساً ذهنياً يقوم على قوانين فطرية موروثة؛ فلم يحتاجوا إلى إظهاره على هيئة قواعد تعليمية لأنه كان يتعلم من البيئة التى كان يعيش فيه العربى يومه بين سلم وحرب وشجاعة وفخر.... إلخ.

Scanned by CamScanner

- بدأ القياس يظهر عند أناس فى حياة العرب لا يعرفون لغتهم فكادوا يخربون على العربى لغته التى هى من مظاهر اعتزازه وثقته، وكان ظهور هؤلاء الناس فى حياة العربى رغبة فى الدين الجديد، وحباً فى القرآن الكريم الذى نزل بلغة العرب من عند رب العالمين.

- توصل البحث إلى أن هناك فرقاً بين القياس النحوى والقياس اللغوى، وأن ما كتب حول هذا الموضوع كان يدمج بينهما فالأول مهمته قياس الوظائف والظواهر النحوية، والثانى مهمته اللغة بخصائصها وصفاتها التى عاشت بها منذ وجودها عبر قرون مديدة.

- أثبت البحث أن القياس النحوى فى مراحله الأولى التى ارتبطت باللغة كان عبارة عن قياس للأنظمة المعهودة فى عقل وفكر العربى.

- يعد وجود القياس من الحقائق العلمية، وأن التأريخ له بظهور اللحن لا يعد إنصافاً، وإنما هى مراحل مر بها.

- أثبت البحث أن أبا الأسود هو أول من فكر فى القياس، وإن لم يكن ذاتياً، وإنما كان هذا من خلال قيامه بوضع حركات الحروف للقرآن الكريم، والقرآن نزل بلغة العرب، وبالطبع حوى ألفاظها وتراكيبها المتعددة، وظواهرها النحوية المتنوعة، فقد لاحظ ـ كما أشرنا ـ اختلاف الأداء، والضبط، وأودعه لتلاميذه.

- بدأ القياس العلمى أو المدروس بسيطاً، وكان عبارة عن ملاحظات ونظرات نحوية لم تسجل بعد حتى اكتمل على يد ابن إسحاق ، والخليل بن أحمد.

Scanned by CamScanner

- اختلف منهج القياس بعد ذلك؛ فكثر الخلاف بين النحاة، وتعددت المذاهب النحوية التى اعتمدت من ضمن ما اعتمدت عليه إظهار القدرات الذهنية، والعقلية التى حلت على النحو بافتراض أشياء لم تتكلم بها العرب، ولم تكن فى الواقع اللغوى.

- اعتمد القياس بعد تعدد المنهج على الأفراد؛ ولذلك جاءت نتائجه تبعاً للتفرد فمن يقصر بحثه فى اللغة، أو تقصر قدرته النحوية يقصر قياسه، ومن طال باعه، وكان خبيراً عالماً عارفاً باللغة قوى قياسه.

- أثبت البحث أن الفارسى وابن جنى، وغيرهم كالزمخشرى، والأنبارى، وأبى البقاء... وغيرهم هم الذين أضافوا إلى القياس ما لم يسلكه الأوائل، وهو انفتاح اللغة على كل مسموع، وتعامل القياس مع أى زمن وأى عصر؛ ولذلك يعدوا هؤلاء من المجيدين.

- اتسم القياس بعد هؤلاء بطابع الدراسة والتحليل، والتأييد أو الاعتراض، وإيجاد العلل التى تعتمد على المنطق أكثر من اعتمادها خدمة النحو.

- أوقع القياس العقلى الذى وضعه السابقون ــ على الرغم من أن اللغة بنت السماع، وطريقها الرواية ــ خلافاً فى كثير من القضايا كقضية العامل، وقضية التأويل فى صوره الممقوتة، على الرغم من أن واقع الناطقين غير ذلك.

- عرفت المجامع اللغوية فى العصر الحديث ما يطلب من القياس النحوى فقامت به خير قيام؛ فلم ترفض ولم تقبل أى ظاهرة نحوية أو صرفية إلا بعد دراستها، وبحثها، وهل يمكن قياسها على لغة العرب أم لا ؟ وهذا ما رسمه الفارسى، وابن جنى.

Scanned by CamScanner

وفى النهاية أسأل المولى سبحانه وتعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه تعالى، وأن ينفع به أهل العلم وحراس العربية، كما أسأل القارئ العزيز أن يستر ما به من زلل، ويصلح ما به من خلل؛ فكلنا فى رحاب اللغة مجتهدون، وعلى مائة القرآن ولغته ساعون.

اللهم تجاوز عن سيئه، وأجزل محسنه إنك على كل شيئ قدير، وبالإجابة جدير.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

دكتور

محمد رفعت حمدان أحمد سطوحى

أستاذ النحو والصرف المشارك فى

جامعة الملك خالد

أستاذ اللغويات المساعد فى كلية البنات

الإسلامية ــ جامعة الأزهر

Scanned by CamScanner

أهم المراجع

- القرآن الكريم... جل من أنزله.
- أصول النحو العربى د / محمد عيد ــ عالم الكتب.
- الأصول د / تمام حسان ــ دار الثقافة الدار البيضاء.
- الاقتراح فى علم أصول النحو للسيوطى تحقيق / محمد حسن إسماعيل الشافعى ــ دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- إنباه على أنباه النحاة للقفطى ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٠م.
- البحث اللغوى عند العرب ــ أحمد مختار عمر ــ ط ٢ عالم الكتب.
- البيان والتبيين للجاحظ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ــ دار المعارف.
- الحيوان للجاحظ ــ ت عبد السلام هارون ــ الخانجى مصر.
- الخصائص لابن جنى ــ تحقيق محمد على النجار ــ دار الكتب المصرية.
- الخط العربى وتطوره لسهيلة الجبورى بغداد.
- ضحى الإسلام لأحمد أمين ط ٧ السعادة القاهرة.
- طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط الخناجى.
- طبقات فحول الشعراء للجمحى شرح محمد شاكر دار المعارف للطباعة.
- الفهرست لابن النديم ــ مطبعة الاستقامة ــ القاهرة.

Scanned by CamScanner

- فى التفكير النحوى عند العرب د / زهير غازى ــ عالم الكتب.
- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ــ دار الكتب العلمية.
- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للبرهان فوزى ــ ط حيدر آباد الدكن ١٣٦٤هـ
- لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه، تأليف شريف الشوباشى مكتبة مدبولى.
- اللغة لفندريس ترجمة عبد الحميد الدواخلى، ومحمد القصاص القاهرة ١٩٥٠م.
- المحكم فى نقط المصاحف للدانى ط دمشق.
- المدارس النحوية د / شوقى ضيف ط دار المعارف.
- مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو د / مهدى المخزومى ط الحلبى.
- من أسرار العربية د / إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م.
- من تاريخ النحو العربى للأفغانى ط دار الفكر.
- النحو العربى لمازن المبارك القاهرة ١٩٦٥م.
- نشأة النحو للشيخ الطنطاوى ط دار المنار.
- النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى دار الكتب العلمية بيروت لبنان. آباد الدكن ١٣٦٤هـ.
- يونس د / حسين نصار ــ سلسلة أعلام العرب ــ القاهرة.

Scanned by CamScanner